البناء الفنّي الدّلالي في وصيّة العلاّمة الحلّي لابنه فخر المحقّقين

أ. صليحة سبقاق

جامعة الجزائر ٢

الملخص

تأخذ الوصيّة عمومًا منحى التّوجيه والإرشاد، وتستند إلى تجارب حياتيّة استخلص صاحبها منها أحكامه على الحياة، وإن كانت وصيّة العلاّمة الحِلّي لابنه فخر المحققين مترفة بالحكم والمواعظ والشواهد، وغنيّة بأساليب الحجاج والإقناع، إلا أنّنا في هذه الدّراسة نحاول مقاربتها أسلوبيًّا، فالوصيّة كجنس أدبي مستقل تحمل سمات أسلوبيّة مختلفة، يعتمد عليها مُنشئ الخطاب (الموصي) من أجل التّأثير في المتلقّي (الموصى إليه)، ومن هذا المنطلق نقوم برصد السّمات الأسلوبيّة في النّص من طريق المستوى الصّوتي والدّلالي والتّركيبي فيها، وربط كل ذلك بالإبداع الفكري للعلاّمة الحِلّي، فتقف الدّراسة عند الصّيغ الصّرفيّة و أثرها الدّلالي، والإيقاع الصّوتي في النّص، والتّركيب وأثره الدّلالي (الحذف، الاعتراض، المقابلة ...) لنخلص إلى أنّه علاوة على الحمولات الدّينيّة والأخلاقيّة الوافرة في نص الوصيّة، هناك بناء فنّي متكامل يحمل السّمات الأسلوبيّة الّتي تعلي أدبيّته وتؤثّر في المتلقّي لما تحدثه في نفسه من وقع فنّي جمالي يرسّخ مضمونها التّوجيهي والإرشادي.

The Technical Semantic Structure of the Will of al-Alama al-Hilly to his son Fakhrul Muhaqiqin Stylistic Study

Mrs. Saliha Sabqaq
University of Algeria 2

Abstract

The will generally takes the direction of guidance and instruction, and is based on life experiences in which the author concludes his judgments on life matters. However, though the will of the al-Alama al-Hilly to his son Fakhrul Muhaqiqin is full of preaching and evidence and is rich in the methods of argument and persuasion, but we try to study it stylistically. The will has different stylistic traits on which the author (devisor) relies in order to influence the devisee. In this sense, we monitor the stylistic features of the text through the phonetic, semantic and syntactic levels and joining all that to the intellectual innovation of the al-Alama al-Hilly. The study deals with the morphological forms and their semantic effect, the phonetic rhythm in the text, the structure and its semantic effect (deletion, objection, contradiction...) to conclude that in addition to the religious and moral ideas in the text of the will. It carries the stylistic features that enrich its rhetoric status and affect the recipient due to its aesthetic effect that establishes its guiding and instructional content.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

عرف تراثنا الأدبي العربي أجناسًا أدبيّة مختلفة، تضمّنت تجارب حياتيَّة، وصف فيها الكاتب نفسه وبيئته وكثيرًا من الأغراض الأدبيّة الَّتي صوَّرتْ علاقته بمن حوله، وتعدّ الوصايا فنًّا أدبيًّا إكتسى طابعًا شخصيًّا، وحاز على إهتمام الكتّاب والنّقاد على حدٍ سواء، و لطالما دأب العربي الحكيم على تدوين وصاياه لأقاربه ومن يهمهم أمره، وحمّلها حكمه الّتي استنبطها من خلاصة تجاربه في الحياة، معتمدًا على الحكم والمواعظ والإرشاد والتّوجيه، وقد عنيت هذه الدّراسة بمقاربة وصيّة[1] العلاّمة الجليل الحسن بن يوسف بن علي بن مطهر أبي منصور الحلّي لابنه فخر المحقّقين، وهي تحفة أثريّة فكريّة وأدبيّة، مملوءة بالحكم والعظات، جاءت بأسلوب يضمُّ أدوات الحجاج والإقناع، الّتي تجعل من هذا النّص خالدًا و صالحًا لكلّ زمان ومكان. ولسنا بصدد دراسة أساليب الحجاج والإقناع فيها، بل نحاول الولوج إليها من باب كونها نصًّا أدبيًّا يشتملُ على سمات أسلوبيّة جديرة بالدّراسة، ولاسيما أنّ صاحبها عالم وفقيه وأديب ذاع صيته لدى المسلمين على اختلاف مذاهبهم وبلدانهم.

مفهوم الوصيّة لغة و اصطلاحًا :

الوصيّــة في اللغة أصلها من الوصل، (وصى) الواو والصّاد والحرف المعتل أصل يدل على وصل شيء بشيء: وصلته، و يقال وطئنا أرضًا واصية أي نبتها متّصــل قد امتــلأت منه[٢]. وترد الوصيّة في اللّغة بمعنــى العهد، يقال أوصى الرّجــل وأوصاه أي عهد إليه[٣] والمعروف أنّها ســميّت بالوصيّة لاتصالها بأمر الميت الموصي[٤].

واصطلاحًــا: عرّفت الوصيّة الأدبيّــة بأنّها «نوع مــن الأدب غايته التّوجيه والإرشــاد، والحثّ على اكتســاب المحامد، أو التبصير بحسن السّياسة أو الدّعــوة إلى مكارم الأخــلاق.»[٥]، وهي بهذا « لون مــن الكلام فيه توجيه وإبلاغ»[٦].

ترتكــز قيمة الوصيّــة على شــخصيّة (الموصي) الّذي ينبغــي أن يتّصف بالحكمــة وحضور البديهة والتّمكن من جوامع الكلم، كي يســتطيع أن يشــدّ انتباه (الموصــى إليه) ويقوده إلى الوجهة الصّحيحــة المبتغاة من محتوى (الوصيّة) نفســها، وهي عموما عبارة عن عمليّة اتّصال تسهم أطرافها الثّلاثة في تحقّقها وحصول المراد منها، بالاعتماد على وســائل وآليات أسلوبيّة تعمل على تماســك الخطاب وتضفي عليه طابعه الأدبي الخاصّ. وإنّنا إذ نعمل على دراســة وصيّة العلّامة الحلي لابنــه فخر المحقّقين – وهو الحكيم الخطيب، كثير التّصنيف والتّأليف – فإنّنا نحاول رصد أهم السّــمات الأســلوبيّة الّتي ميّزت هذا النّص النّثري.

لقــد جاءت الوصيّة في ختام كتابه (قواعد الأحكام)، ولا شــك في أنّ العلّامة بعد أن انتهى من تأليف كتابه، أحسّ بضرورة مراجعته والتّدقيق فيه، وهذا ديدن العلماء فهم في الغالب لا يشعرون بالرّضى عن أعمالهم في البداية ويخافــون من أن يحيط بــه التّقصير، ومن طريق نص الوصيّة نستشــعر بأن

العلاّمة أحسّ بدنو أجله و رأى ضرورة أن يكتب الوصيّة لابنه فخر المحقّقين.

خصوصيّة البدء والانتهاء في نص الوصيّة:

عُرِفت الوصايا عمومًا بارتكازها على أساليب الأمر والنهي والنّداء بصفتها الأساليب الإنشائيّة الّتي يحصل من طريقها الغرض من الوصيّة، وقد كانت أغلب الوصايا تبدأ بأسلوب النّداء على غرار: أي بني، يا بني، أيّها المسلمون...ثم يلي ذلك أفعال الأمر اللّازمة، إلّا أنَّ وصيَّةَ الحِلّي اكتسبتْ طابعَ الخصوصيّة عندما بدأها بالأمر ثمّ النّداء بقوله (اعلم يا بني)؛ لأنّه أراد أنْ يلفت انتباه ابنه إلى أهميّة ما يوصي به منذ البداية، وأنّ المطلوب منه هو القيّام بعمل محدد وهو إتمام ما بقي ناقصًا من كتبه بعد أن يحين أجله، ولا شكّ في أنّ الابن يعي تمامًا مكانة أبيه العلميّة و الدّينية، وعلى اعتبار أن «أدب الوصيّة يرتكز على بنية عمادها أنّ الموصي يمتلك المعرفة الّتي تؤهله أن يكون بموضع الموجّه والمسدّد للموصى إليه، الذي يكون بدوره أحوج إلى هذه المعرفة»[٧]. فإنّ حاجة الابن إلى نصائح أبيه تظل قائمة طالما هو الابن والتّلميذ في آن واحد.

الواضح أن الوجه الآخر لخصوصيّة مطلع الوصيّة يتمثّل في الاعتراض الذي جاء مباشرة بعد فعل الأمر (اعلم) و يحتوي على دعاء يعدّ طويلًا نسبيًّا؛ لأنّه الموضع الوحيد في الوصيّة الذي دعا فيه العلاّمة لابنه، فهو سيهتم بعد ذلك بالرّسائل التّوجيهيّة المهمّة؛ إذ لن يكون متّسع النّص كافيًا ليدعو مرّة أخرى لابنه، وكذلك على اعتبار أنّ الابن يدرك أنّ الوالد يرعاه بدعائه، وإن لم يكثر منه في الوصيّة: (اعلم يا بني- أعانك اللّه تعالى على طاعته، ووفّقك اللّه لفعل الخير وملازمته وأرشدك إلى ما يحبّه ويرضاه، وبلّغك ما تأمله من

الخيــر وتتمنّاه، وأســعدك اللّه في الدّارين، وحباك بــكلّ ما تقرّ به العين، ومــدّ لك في العمر السّــعيد، والعيش الرّغيد، وختــم أعمالك بالصّالحات، ورزقك أســباب السّــعادات، وأفاض عليك من عظائم البركات، ووقاك اللّه كلّ محذور، ودفع عنك الشّــرور- أنّى قــد لخصت لك في هذا الكتاب...)

فمن المعلوم أن الكلام يتداخل فيحسّ المسترســل في الكلام بالحاجة الملحّة إلــى الالتفات إلى أشــياء يراها ضروريّة في أثناء حديثــه عن أمر ما، لغرض التّنبيه على لاحق الكلام ومشــاركة المتلقّي فــي الأخذ بعين الاعتبار أمورًا أخــرى لا تقل أهميّة عن الموضوع الرّئيس، و قــد دأب العرب على ذلك كما يقول ابــن فارس في كتابه الصّاحبي في فقه اللّغة: «إنّ من ســنن العرب أن يعتــرض بين الكلام وتمامــه، كلام لا يكون إلّا مفيدًا»[٨]. و إنّنا إذ نعدّ أن البنى اللّغويّة في مطلع الوصيّة جاءت بشكل فنّي خاص (الأمر، الاعتراض، طول الدّعاء) فإنّها بهذا تشير إلى دلالات خاصّة أيضا، فقد يفهم القارئ أنّ العلّامــة الحِلّي يتّجه بخطابه إلى متلقّ وحيد وهو ابنه فخر المحقّقين، ولكن هذا الفهم سرعان مايتلاشى عندما يواصل قراءة الوصيّة، ليكتشف أنّ فخر المحقّقين ليس هوالمتلقّي الوحيد، بل هو المتلقّي الأول فقط، لأن كل ما ورد في الوصيّة بعد ذلك صالح لكل شخص مسلم في كل زمان و مكان، عدا ما يختص بتدقيق المؤلّفات و هي المَهَمَّة الّتي أناط بها الشيخ ابنه.

إن كان العلّامــة قد ضمّــن بداية وصيته بالدّعاء لابنــه، فإنّه قد ختمها بطلب الدّعاء من ولده وقد أطال في ذلك بعض الشّيء أيضا، وهو العارف بأنّ ما من شــيء ينفع الإنســان بعد أن يتوفّاه الأجل مثل الدّعاء والتّرحم، فيقول: (وأمّــا ما يرجع إلي ويعود نفعه فيّ: فأن تتعهّدنــي بالتّرحم في بعض الأوقات وأن تهدي إليّ ثواب الطّاعات، ولا تقلّل من ذكري فينســبك أهل الوفاء إلى

الغدر، ولا تكثر من ذكري فينسبك أهل الحزم إلى العجز، بل اذكرني في خلواتك وعقيب صلواتك، واقض ما عليّ من الدّيون الواجبة والتّعهدات اللّازمة، وزر قبري بقدر الإمكان واقرأ عليه شيئا من القرآن). وهنا يبدو الاعتراض واضحا في المعنى، فإن كان قد جاء في المطلع بين مطّتين، ممّا يضفي عليه النّية الصّريحة في الاعتراض، فإنّه قد جاء في نهاية الوصيّة بشكل معنوي وعبارة (وأمّا ما يرجع إلي) هي القرينة الدّالة على ذلك، وبهذا يكون صاحب الوصية قد ضمّن الدّعاء لابنه في البداية ولنفسه في النّهاية من طريق جمل اعتراضية لعلمه بأن «التّضمين هو شحنة انفعاليّة ينفثها الكاتب في كلماته و يحسّ بها القارئ عند تعامله مع تلك الكلمات»[٩].

وما يجدر ذكره أنّ العلاّمة قد ضمّن النّصح لابنه حتى وهو يوصيه بالدّعاء له في نهاية الوصيّة، بقوله (و لا تقلّل من ذكري فينسبك أهل الوفاء إلى الغدر، و لا تكثر من ذكري فينسبك أهل الحزم إلى العجز)، فهاتان الجملتان جاءتا متقابلتين بصيغة النّهي، واحتوت كلٌّ منهما على طباق متعدد، أكسبها شكلًا فنيًّا بديعًا؛ و ذلك لأنّ شخصيّة الموصي قد خبرت جيّدًا أهل الوفاء وأهل الحزم، وبهذا أراد الشّيخ أن يكون ابنه منهم، وهذه الاستمالة الوجدانيّة تقوم بنفس الدور الّذي قد تقوم به الحجج المنطقيّة في أساليب الإقناع.

الإيقاع الصّوتي في الوصيّة:

تمتلك أذن الإنسان ميزة خاصّة تجعلها تتأثّر بالكلام الذي يأخذ إيقاعا صوتيًّا مميَّزًا، وهذا التّأثير يقع في نفس السّامع وعقله، ومن المعروف أنّ أدب الوصايا يتطلّب تحريك العاطفة وتقويّة العزيمة لذلك انبنى في غالبيّته على أسلوب السّجع، الّذي يعرّفه الخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ) على أنّه «تواطؤ الفاصلتين من النّثر على حرف واحد، وهذا معنى قول السّكاكي

الأسجاع من النّثر كالقوافي في الشّعر»[10]. فالموصي يقف عند الأسجاع الّتي تتعلّق بوجدانه كالشّاعر الّذي ينمّق قوافيه لتحمل مشاعره وخيالاته، والعلّامة الحلّي لم يتوقّف عند الأمر والنّهي فقط، بل كان يردف كل منهما بالسّبب المقنع لذلك، فقد كان يستشهد في ذلك بالقرآن الكريم والسّنّة النّبويّة الشّريفة وأقوال الأئمّة ﷺ، وقد بنى كل سبب يقدّمه معتمدًا على أصوات معيّنة تحقّق الغرض الفكري والوجداني ممّا أراد الأمر به أو النّهي عنه، ولكون شيخنا أديبًا ملك زمام الفصاحة، فلا شكّ في أنّه كان يتخيّر الأصوات الّتي يبني عليها وصيّته، ولاسيّما أنّهُ قد ضَمّنَ خاتمة كتابه الأمر الذي يدّل على أنّها موجّهة لكل مطّلع على الكتاب وليس فقط لابنه فخر المحقّقين.

و قد تجسّدت الأسباب الّتي أوردها بعد الأوامر أو المنهيات فيما يلي:

(...فإنّها السّنة القائمة، والفريضة اللّازمة، والجنّة الوافيّة، والعدّة الباقيّة)

(...فإنّها تفيد استعدادا تامّا لتحصيل الكمالات، و تثمر لك ملكة راسخة لاستنباط المجهولات، و ليكن يومك خيرا من أمسك)

(...فإنّ اللّه لا يسامح بكسر كسير)

(...فإنّ رسول اللّه ﷺ حثّ عليها و ندب إليها)

وإنّنا إذ نستذكر صفات الأصوات ومخارجها الّتي بني عليها السّجع – فيما يأتي- فذلك لأنّنا نريد أن نستنبط أثرها الدّلالي ومدى فاعليتها في النّص على وفق الجدول الآتي:

الصّوت	صفاته	مخرجه
الميم	مجهور، منفتح، بين الشّدّة و الرخاوة	شفوي
الياء	رخو، مجهور، منفتح	شجري
التاء	مهموس، منفتح، شديد	لثوي
الكاف	مهموس، منفتح، شديد	لهوي
الرّاء	مجهور، منفتح بين الشّدّة و الرّخاوة	لثوي
الهاء	مهموس، منفتح، رخو	حنجري

لقد اشتمل النّص على كل أصوات اللّغة العربيّة، وقد تكاملت فيما بينها لتحقّق جودة التّعبير و قوّة التّأثير، ولكن العلاّمة حرص على انتقاء الأصوات السّابقة لتزيد وسائله الإقناعيّة، تأكيدًا وعملًا، فقد انقسمت الأصوات بين المجهورة والمهموسة؛ لأنّ خصوصيّة هذه الوصيّة تتطلّب ذلك، فصاحبها هو الشّيخ الحازم والأب الحنون في الوقت نفسه، والموصى إليه هو التّلميذ المثابر والابن البار، وذلك ما جعل تلك الأصوات تتأرجح بين الشّدّة والرّخاوة، وقد كانت مخارجها مختلفة تمامًا؛ لأنّها مليئة بالانفعالات النّفسيّة الّتي تتطلّب توظيف كل أعضاء النّطق من أجل تحقيق الغرض المرجو من الوصيّة خاصّة, وأنّ الموصي صرّح بأنّه يحسّ بدنو أجله قائلًا: (..وذلك بعد أن بلغت من العمر الخمسين، ودخلت في عشر السّتّين، وقد حكم سيّد البرايا، بأنّها مبدأ اعتراك المنايا..) وقد علمنا أنّ العرب قديما «تفنّنوا في طرق ترديد الأصوات في الكلام حتّى يكون لها نغم وموسيقى، وحتّى يسترعي الآذان بألفاظه..الأمر الذي يدلّ على مهارتهم في نسج الكلمات وترتيبها وتنسيقها، والهدف من هذا هو العناية بحسن الجرس...»[١١]، فالأصوات الّتي تكرّرت

في المواضع المهمّة من نص الوصيّة أسهمت بقوّة جرسها في التّأثير في ذهن المتلقّي وساعدت صاحب النّص على ربط البنى اللّغويّة بمضمونها، وهي بلا شك جعلت فخر المحقّقين يحقّق وصيّة أبيه كما تجعل أي قارئ للوصيّة يتّعظ ويمتثل لنصائح العلّامة الحِلّي الّتي هدفها الرّقي بأخلاق المسلم وجعله يعمل لأجل دينه ودنياه.

صيغة (افتعال) المشتقّة من (افتعل) و أثرها الدّلالي:

ارتقت اللّغة العربيّة بدقّة وسائلها ولطافة خصائصها، فتشابهت الألفاظ كتابة من جهة المبنى، واختلفت من جهة المعنى، ولذلك كانت صيغة الكلمة ووزنها شرطًا رئيسًا في تحديد معناها، والصّيغة الصّرفيّة لكلمة ما تعني «الهيئة الّتي ركبت فيها حروف الكلمة الأصليّة والزّائدة، والبناء الّذي جمعت فيه، أو القالب الّذي صبّت فيه هذه الحروف وهو الّذي يعطي الكلمة صورتها وشكلها، ويجعل لها جرسًا معينًا»[١٢] ولا شكّ في أنّ اختيار صيغ بذاتها في نص خاص كهذه الوصيّة، يأتي نتيجة مراس وحسن اطلاع وتمكّن من دقائق اللّغة العربيّة، وممّا شدّ انتباهنا في الوصيّة توظيف العلّامة الحِلّي لصيغة (افتعال)، وهي إحدى مشتقّات الصّيغة (افتعل)، وقد وردت هذه الصّيغة في البداية مباشرة بعد مقدّمة الوصيّة في قوله (وعليك باتّباع أوامر اللّه تعالى، وفعل ما يرضيه واجتناب ما يكرهه و الانزجار عن نواهيه)، وقد تشكّلت دلالات هذه الصّيغة من طريق كلمات (اتّباع، واجتناب وانزجار)، أتت هذه الصّيغة للدّلالة على الاجتهاد والمبالغة في الفعل، الأمر الذي يدلّ على أنّ العلّامة الحِلّي كان حازمًا في الأمر والنّهي في أثناء فاتحة نصائحه، وضمّنها ثلاث مهام من شأن المتحلّي بها أن يكون مسلمًا حقًّا، وهي اتّباع أوامر اللّه، واجتناب المحرّمات والابتعاد عن المكروهات، إذ كلّما حرص

الموصى إليه على المبالغة في فعل تلك الأوامر الثّلاث، وصل إلى السّمو المنشود الّـذي أراده العلّامة لابنه ولغيره من المسـلمين، فهو يقول لمن التزم بذلك بأنّه سيحظى بـ (..الارتقاء عن حضيض النّقصان إلى ذروة الكمال، والارتفاع إلى أوج العرفان عن مهبط الجهّال)، ومن ثمَّ ترسم الوصيّة هذا الالتزام المنطقي:

اتباع + اجتناب ارتفاع + ارتقاء

و يعـود العلّامـة إلى توظيف صيغـة (افتعال) في الوصيّـة قبل أن يلج إلى خاتمتهـا ليقف عند أمرين مهمّـين، إذا ما قام بهما المسـلم فاز فوزا عظيما وهما تلاوة كتاب اللّه وتدبّره، والالتزام بالسّـيرة النّبويّة، إذ يقول: (وعليك بتلاوة الكتاب العزيز والتّفكّر فـي معانيه، وامتثال أوامره ونواهيه، وتتبع الأخبـار النّبويّة والآثار المحمّديّـة، والبحث عن معانيها، واسـتقصاء النّظر فيها). والصّيغتان (امتثال) و(اسـتقصاء) تخرجان إلى دائرة الفعل الحقيقي، الّـذي نراه بالعين و ندركه بالعقل، فلا يكفي أن نتلو كتاب اللّه، بل لا بدّ من (الامتثال) لأوامره ونواهيه، أي ضرورة الانتقال من الحسّـي إلى العملي، وهو الجانب الّذي يصنع شـخصيّة المسلم الحقيقي ويكسبه المكانة المرجوة عند اللّه تعالى وعند النّاس، والأمر نفسـه فيما يتعلق بالسّـنّة النّبوية والآثار المحمّديّة؛ اذ لا يكتفي المسـلم بالاطّلاع عليه، بل يسـعى إلى (اسـتقصاء) النّظر فيها، وهو الفعل الّذي يجعله يدرك المغزى من السّنن المحمّديّة و يقتدي بها ليكون ذلك ظاهرا في شـخصه وتصرّفاته، وبهذا تكون الوصيّة «أحد ألوان النّقد الاجتماعي الّذي يسـعى من خلالها الموصي إلى إبعاد المجتمع عن حيـاة الرّذيلة إلى حياة الفضيلة، وإعطاء صورة للنّموذج الإنسـاني، لما تحمله من قيم ومبادئ أخلاقيّة سـاميّة ودلالات فكريّة ونفسـيّة، فهي بحق سجل صـادق لأنماط العلاقات الأسـريّة والاجتماعيّة»[١٣] فالعلّامـة الحِلّي أراد بلا

شـك أن يكون فخر المحقّقين أنموذجا للمسـلم الّذي يلتزم بتعاليم الإسلام والسّـنّة النّبويّة الشّـريفة؛ لأنّه الأنموذج الّذي يصلح به المجتمع والأمّة جمعاء.

وإذا عدنا إلى صيغة الاستلزام المنطقي الأول:

(اتّباع + اجتناب ارتفاع + ارتقاء)

فإنّنا سـنكون أمام اسـتلزام مكمّل له يبدأ حيث انتهى الأوّل لتكون الصّيغ الآتيّة:

(ارتفاع + ارتقاء امتثال + استقصاء)؛ لأنّ المسلم لا يصل إلى درجة الكمال الإنسـاني إلّا بالامتثال لتعاليم القرآن واسـتقصاء السّـنّة المحمّديّة الشّريفة.

التّركيب والدّلالة في الوصيّة:

إذا كنّا في التّحليل الأسلوبي نفرّق بين دراسة المستوى التّركيبي والمستوى الدّلالي، فإنّنا نعتمد على كونهما شـريكين أساسيين في تلقّي النّص، من أجل كشف أهم السّمات التّركيبيّة والدّلاليّة فيه، ولاسيّما أنّ النّص يتّصف بالقصـر، وكذلك الطّابع الخاص بالوصايـا الأدبيّة عموما يجعلنا نجنح إلى ذلك؛ لكونها خالية من التّخييل على عكس الشّـعر. وقمين بنا أن نذكر أنّ هناك ايضاءات أسـلوبيّة قصيرة تندرج تحت هذا العنصر، ولكنّها محطات تستدعي توقّف القارئ الدّارس الّذي يهوى مصافحة النّصوص الأدبيّة المميّزة، فهي محطّات دلّت على نفسها ودعت القارئ إلى ولوجها، وهي:

الحذف المعنوي:

قـد لا يتمثّل الحذف في التّخلي عن أحد عناصر الجملة، فقط، بل يتعدّاه إلى أفق دلالي أبعد، حينما يعمد منشـئ الخطاب إلـى التّغيير في بنى لغويّة معيّنة، لغرض ما، يهدف إلى حصوله لدى المتلقّي، وهو وسـيلة أسلوبيّة اهتم

بها علمـــاء البلاغة القدامى، إذ يقول الجرجاني فـــي الدّلائل: «هو باب دقيق المســـلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شـــبيه بالسّـــحر، فإنّك ترى به ترك الذّكر أفصح من الذّكر، والصّمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق مـــا تكون إذا لم تنطـــق، وأتمّ ما تكون إذا لم تـــبن...»[١٤] وهذا بالضبط ما نلمســـه في بعض المواضع من وصيّة الحِلّـــي، فهو قد كان يورد الجملة الّتي تحمل وصيّة ما ويشفعها بشاهد من القرآن الكريم أو السّنّة النّبويّة أو أقوال الأئمّة عليهم السّـــلام، ليعزّز به وصاياه؛ لأنّ فيها الحجّة واليقين، ولكنّه في مواضـــع أخرى يكتفي بتقـــديم جملة الوصيّة ويليه بجملة توحي بالشّـــاهد، وكأنّـــه يستشـــير ذهن المتلقّي و يدفعه إلى مشـــاركته فـــي البناء الفكري للوصيّة، ومن تلك المواقف نذكر ما يلي:

قول الحِلّي في معرض حديثه عن إحساسه بدنو أجله: (...وذلك بعد أن بلغت الخمســـين، ودخلت السّـــتين، و قد حكم ســـيّد البرايا، بأنّها مبدأ اعتراك المنايا) وهي إشـــارة تجعل الموصى إليه يستدعي حديث رسول الله ﷺ «أعمار أمّتي ما بين السّتين إلى السّبعين»[١٥].

و حين أوصى بصلة الرّحم، اختصر قوله فيها بأنّها تزيد في العمر: (وعليك بصلة الرّحم، فإنّها تزيد في العمر). و في ذلك اســـتدعاء لقول رســـول اللّه ﷺ: «من سرّه النّساء في الأجل والزّيادة في الرّزق فليصل رحمه» ولقول الإمام الصّادق عليه السلام «ما نعلم شيئا يزيد في العمر إلّا صلة الرّحم، حتّى إنّ الرّجل يكون أجله ثلاث ســـنين فيكون وصولا للرّحم، فيزيد اللّه في عمره ثلاثين ســـنة فيجعله ثلاثا وثلاثين، ويكون أجله ثلاثا وثلاثين سنة فيكون قاطعا للرّحم، فينقصه اللّه ثلاثين سنة ويجعله إلى ثلاث سنين»[١٦].

و قـــال فـــي باب معاملة العلمـــاء: (...وجعل النّظر إلى وجـــه العلماء عبادة، والنّظر إلى باب العالم عبادة، ومجالســـة العلماء عبادة)، وفيه استدعاء لقول

رسولنا الكريم: « من زار عالما فكأنّما زارني، ومن صافح عالما فكأنّما صافحني، ومن جالس عالما فكأنّما جالسني، ومن جالسني في الدّنيا أجلسه اللّه معي يوم القيامة في الجنّة»[١٧].

وعدم إيراد الشّواهد أو حذفها حذفا معنويا في تلك المواضع، هو أمر مقصود من صاحب الوصيّة، فهو لا يوجّه كلامه بالدّرجة الأولى إلى شخص بسيط من عامّة النّاس، بل هو موجه إلى تلميذه الّذي أخذ منه العلوم والمعارف والّذي كلّفه بتدقيق كتبه وتصحيح هناتها، أمّا المتلقّي الآخر للوصيّة فسيكون مجبرا على ملء الفراغات الّتي يحتويها النّص، الأمر الذي يجعله شريكاً أساسيًّا فيه؛ لأنّ أسلوب الحذف جاء قصد استثارته وإيقاظ ذهنه وتنبيهه إلى تعاليم دينه الحنيف.

المقابلة و أثرها الفنّي والدّلالي:

كان العلّامة الحِلّي تَدَّسَ خطيبًا فصيحًا، وكاتبًا خبر أساليب البيان والبديع، وقد جاء نصّ الوصيّة ثريًّا بالمحسّنات البديعيّة الّتي أعطت للنّص صبغته الأدبيّة الفنيّة، ومنها استعماله للمقابلة في موضعين مهمّين من الوصيّة، فهو حينما يوّجه خطابه لابنه يستعمل طباقًا مضاعفًا، ليقابل بين أمرين يبدو للوهلة الأولى أنّهما متوافقان، إلى أن يتبيّن اختلافهما في المدلول، فهو يقول: (...الارتقاء عن حضيض النّقصان، إلى ذروة الكمال، والارتفاع إلى أوجّ العرفان عن مهبط الجهّال)، فالواضح أنّ فِعْلَي (الارتقاء والارتفاع) لهما نفس المعنى، ولكن دلالتهما تختلف حسب السّياق، فالأوّل هو الصّعود من القاع إلى القمّة، والثّاني هو ارتفاع من القمّة إلى قمّة أعلى منها، و قد عرف أبو هلال العسكري المقابلة على أنّها: «إيراد الكلام في مقابلته بمثله في المعنى واللّفظ على جهة الموافقة أو المخالفة، فأمّا ما كان منها في المعنى فهو مقابلة الفعل بالفعل»[١٨]، وإنّما يُظهر المخالفة هنا الطّباق الموجود فيألفاظ: (حضيض، ذروة)، (النّقصان، الكمال)،

(أوج، مهبـط)، (العرفان، الجهّـال)، ومنه يتجلّى الاختـلاف الحاصل بين الفعلين، فالارتقاء الأوّل يوصل إلى الكمال البشـري والارتفاع الثّاني يوصل إلى الكمال العلمي.

أمّا الموضـع الثّاني الّذي وردت فيه المقابلة، فهو حين يلتفت العلاّمة الحِلّي للحديث عن نفسـه، في شـكل استمالة عاطفيّة من أب لابنه، حين يقول (و لا تقلّـل من ذكري فينسـبك أهل الوفاء إلى الغـدر، و لا تكثر من ذكري فينسـبك أهل الحزم إلى العجز)، وإن كان ظاهر الـكلام يفيد أن نفع ما ورد فيه يعود على صاحب الوصيّة إلّا أنّ في دلالته البعيدة يشـير إلى أنَّ نفعه يعـود على الموصى إليه؛ لأنّـه إذا كان ذكر الميـت والتّرحّم عليه من طرف الأبنـاء هو العمل الصّالح الّذي ينتفع به الميـت بعد موته، فإنّ عمليّة التّذكر والتّرحّـم هي فائـدة للأبناء؛ إذ تجعلهم من أهل الوفـاء، وقد زاد الحِلّي على ذلـك عندما أورد الاعتدال في الأمر، و قـد وضّحه بتوالي الطّباقات: (تقلّل، تكثر)، (الوفاء، الغدر)، (الحـزم، العجز)، فلا يكفي التّرحّم والتّذكر فقط، بل ينبغي ألّا يكون فيه تقليل ولا إكثار؛ لأنّه في هاتين الحالتين يخرج عـن المراد منه ويدخل صاحبه في دائرة الغدر أو العجز، وهذا يدلّ على نظرة ثاقبـة لصاحب الوصيّة، فهو يتحرّى التّفاصيـل الدّقيقة الّتي توصل المرء إلى الكمال الإنساني، وتتّضح لنا عاطفة الأبوّة الحقّة الخاليّة تمامًا من الأنانيّة، فلو شـاء الشّـيخ لذكّر ابنه بأهميّة التّرحم عليه بعد موته، فهذا حق الوالد وواجـب الأبناء، و لكنّه زاد على ذلك بـأن أوصاه بعدم التّقليل أو الإكثار، وهذه مكرمة منه وفائدة معنويّة للابن تعلي من مكانته بين النّاس.

الخاتمة:

نخلص في نهاية هذه الدّراسة إلى أنّ البنية الفنّية لهذه الوصيّة كشفت لنا طابعًا خاصًّا، اكتسته من خصوصيّة كل من الموصي والموصى إليه، ومن تخيّر الآليات الأسلوبيّة، الّتي دعمت البناء الفنّي والفكري على حد سواء، وهذه الآليات استعملت في مواضع معيّنة من الخطاب، ما كانت لتشدّ انتباه المتلقّي لها لو كانت في مواضع أخرى، وهذا يدلّ على قدرة منشئ الخطاب وتمكّنه من أساليب البلاغة والإقناع، وهو بذلك جمع فيها كل الأمور الّتي تنفع المسلم في الدّنيا والآخرة، وقدّم بذلك رصيدا فكريًّا ودينيًّا وإنسانيًّا، يعود نفعه على أي قارئ للوصيّة وليس على ابنه فحسب، ودليل ذلك أنّه كان يعتني باختيار الكلمات وتوظيفها في قوالب فنيّة تحن لها أذن السّامع، وتقع في قلبه موقعا محمودًا، فيقبل على تدبّرها وتنفيذ ما ورد فيها.

الهوامش

(١) نصّ الوصيّة في مجلّة (تراثنا) العدد ٤١ ، ١٤١٦هـ، ص٤٠٦-٤٢٩.

(٢) معجم مقاييس اللغة، د ط .

(٣) لسان العرب، د ط.

(٤) لسان العرب، ٦/ ١٥٥.

(٥) أساليب النثر الفني، ١٥٥.

(٦) معجم النقد العربي القديم، ٢/ ٤٤٠.

(٧) أدب الوصايا في نهج البلاغة، مجلّة القادسيّة للعلوم الانسانيّة، ع٤، ٢٠١١، ص١٨٩.

(٨) الصّاحبي في فقه اللّغة،٦٣.

(٩) التعيين والتّضمين في علم الدّلالة، مجلّة الفكر العربي المعاصر، العدد١٨، ١٩٨٢، ص٧٢.

(١٠) الإيضاح في علوم البلاغة، ٢٢٢.

(١١) لغتنا الجميلة، ١٦٥.

(١٢) فقه اللّغة و خصائص العربيّة، ١١٢.

(١٣) الوصايا الأدبيّة في العصر العبّاسي، ٩.

(١٤) دلائل الاعجاز،١٥٠.

(١٥) الشّواهد الّتي نوردها في هذا العنصر، و الّتي حذفها الحلي أو بالأحرى لم يذكرها قاصًدا، موجودة في شرح وصيّة الحلي لابنه فخر المحقّقين الّذي أعدّه مركز نون للتّأليف والتّرجمة، والشّارح هو أبو الفِضل بهاء الدّين محمد بن الحسن الأصفهاني، المشهور بـ (الفاضل الهندي)، و لذلك أنا أشير إلى هذا المنجز للعودة إلى إسناد الأحاديث و أقوال الأئمّة: إلى ولدي، شرح وصيّة العلاّمة الحلي، مركز نون للتّأليف و التّرجمة، العراق، ٢٠١٢.

(١٦) انظر شرح وصيّة الحلي.

(١٧) انظر شرح الوصيّة.

(١٨) المعجم المفصّل في علوم البلاغة، ص٦٥٥.

المصادر والمراجع

١. أساليب النثر الفني، لطيف محمد الحكام: مطبعة الآداب، النّجف الاشرف، ١٩٧٤م.

٢. إلى ولدي، شرح وصيّة العلّامة الحلي، مركز نون للتّأليف و التّرجمة، العراق، ٢٠١٢.

٣. الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني: دار الجليل، بيروت، د ت، د ط.

٤. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني: موفم للنّشر، الجزائر، ١٩٩١م .

٥. الصّاحبي في فقه اللّغة، أحمد بن فارس: المكتبة السلفيّة، القاهرة، ١٩١٠، دط.

٦. فقه اللّغة و خصائص العربيّة، محمد المبارك:، دار الفكر الحديث، بيروت، ١٩٦٤، ط٢.

٧. لسان العرب، جمال الدّين محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري (ت ٧١١ هـ): مطبعة بيروت، دار صادر، ١٩٥٦.

٨. لغتنا الجميلة، فاروق شوشة: دار العون، بيروت/ مكتبة مدبولي، مصر، د ت.

٩. المعجم المفصّل في علوم البلاغة، إنعام فوال عكاوي: دار الكتب العلميّة بيروت، ١٩٧١.

١٠. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسن بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ هـ): دار الفكر، القاهرة، ١٩٧٢، د ط.

١١. معجم النقد العربي القديم، أحمد مطلوب: دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، ١٩٨٩.

١٢. الوصايا الأدبيّة في العصر العبّاسي، روناك توفيق علي النّورسي: دكتوراه، كليّة الآداب، الجامعة المستنصريّة، ١٩٩٦م.

الدوريات

١. أدب الوصايا في نهج البلاغة، مزاحم مطر حسين: مجلّة القادسيّة للعلوم الإنسانيّة، ع٤، المجلّد٤، ٢٠١١م.

٢. التعيين والتّضمين في علم الدّلالة، جوزيف شريم: مجلّة الفكر العربي المعاصر، بيروت، ع١٨، ١٩٨٢م.

٣. وصيَّة العلَّامة الحلّي لولده محمد، تحقيق حامد الطائي ، مجلة (تراثنا) ، قُم ، العدد ٤١ ، ١٤١٦هـ